الجند الاموي والجيش العباسي

• دراسة في تطور المؤسسة العسكرية في العصرين الاموي والعباسي

بقلم الدكتور

فاروق عمر فوزي

كلية الآداب ـ جامعة بغداد

في البدء لابد لنا ان نشير بان استعمالنا لاصطلاح « الجيش » للدلالة على الجند أو المقاتلة العرب في العصر الاموي يعتبر استعمالا مبالغا فيه الى حد ما ، بل انه غير وارد تاريخيا ، ذلك لان العرب المسلمين في صدر الاسلام وردحا من العصر الاموي لم يعرفوا الجيش المنظم الدائم ، وان المؤسسة العسكرية العربية لم تتبلور وتأخذ ابعادها وسماتها الحقيقية الا في العصر العباسي .

حين جاء الاسلام غدت الامة كلها مقاتلة ، والامة المقاتلة تعني ان كل القادرين على حمل السلاح من الرجال ينفرون للحرب عند الحاجة ، ولكن لم يكن هناك تنظيم عسكري يربط هؤلاء المقاتلة ولم تكن هناك مؤسسة عسكرية تضمهم . وحين بدأت حروب التحرير والفتح الاسلامي اشترك فيهاالمقاتلة من مختلف القبائل ولكن هؤلاء المقاتلة لم يشكلوا جيشا نظاميا بالمعنى الدقيق المتعارف عليه .

لانهم لم يكونوا تحت السلاح على الدوام بل انصرفوا الى اعمالهم الخاصة ومشاغلهم في اوقات السلم ، ولم يسكنوا في ثكنات عسكرية ويتدربوا على السلاح بصورة مستمرة . كما لم تكن تربطهم رابطة قوية واحدة فيما بينهم من جهة أو مع الدولة من جهة اخرى خاصة عند حدوث الفتن او الازمات الداخلية .

تطور معنى الجند :

دل اصطلاح الجند في البداية على وحدة من المقاتلة العرب من قبيلة أو قبائل معينة وربما كانت لا تتجاوز في عددها الكتيبة . وبمرور الزمن تطور اصطلاح الجند فاصبح ذا مضمون جغرافي يعني الاقليم او المنطقة التي يحكمها اداريا وعسكريا قائد يترأس مجموعة من المقاتلة ويعتمد على واردات الاقليم في التموين والعطاء .(١)

ولم يسكن المقاتلة العرب في البداية المدن فيالبلاد المفتوحة بل بنوا لانفسهم مدنا جديدة بدأت على هيئة معسكرات استقروا فيها مع عوائلهم وسميت الامصار . وقد قسم المقاتلة في الامصار الجديدة الى ارباع او اخماس منفصلة عن بعضها البعض وتحتوي على قبائل معينة واطلق على هؤلاء المقاتلة اسم جند (جمع اجناد) . على ان خلفاء بني امية في بلاد الشام انتهجوا سياسة معينة في سوريا بحيث جعلوا في كل مصر من بلاد الشام قبيلة معينة ، فكان جند قنسرين في غالبيتهم قيسية اما حمص فكانت غالبا يمانية وكانت كلب وجذام غالبة على دمشق .(٢) وقد نجحت هذه السياسة في بلاد الشام وابعدت القبائل العربية الى فترة ما عن الحزازات والصراعات القبلية وسهلت على الخلفاء الامويين الاوائل ان يحفظوا التوازن بينها .

وقد كانت السلطة المركزية تدعو المقاتلة من اقاليم مختلفة عند الحاجة او الضرورة لقمع تمرد داخلي او لمواجهة خارجية ، وبقي اصطلاح (الاجناد) يستعمل للدلالة على هؤلاء المقاتلة ، ولكن ظهرت اصطلاحات جديدة ذات دلالات مترادفة مثل الجيش والعسكر . وكانت نفس التنظيمات القبلية تحفظ اثناء القتال ، ففي رواية تاريخية :

« وقد دعا عدى اهل البصرة فبعث على خمس من اخماسها رجلا ، فبعث على خمس الازد المغيرة بن زيادِ العتكي وعلى خمس بني تميم محرز بنحمران السعدي وعلى خمس بكر بن وائل عمران بن عامر ... ودعا مالك بن الجارود فعقد له على عبد القيس ودعا عبدالاعلى بن عبدالله فعقد له على اهل العالية .. »(٣)

ولما كانت القبيلة تلعب دورها في تعبئة المقاتلة فمن الطبيعي ان اهم عامل لتحقيق النصر على الاعداء هو مهارة القائد وحذقه في ترتيب الجند وتنظيمهم في ساحة المعركة ، ذلك ان العصبية القبلية كانت تعمل عملها بين الجند ، واذا ارتكب القائد خطأ ستراتيجيا بان وضع قبيلة ما في المقدمة لتتحمل وحدها ضربات العدو ويقع عبء المعركة عليها ، بينما تبقى قبيلة اخرى في الجناح او المؤخرة لتنقض في نهاية المطاف وتقتطف ثمرات النصر وتدعي انها هي التي حققته ... اذا ارتكب القائد مثل هذا الخطأ فقد يفقد سيطرته على الجند .

ومن أجل ضمان عدم الوقوع في مثل هذه الأخطاء كان القائد يعتمد على رجل ذى خبرة ، معروف بحنكته في التعبئة وله تجارب في هذا الباب . وفي مصادرنا روايات تاريخية تشير الى هؤلاء تقول احداها مثلا :

« وكان عبدالرحمن بن اصبح اذا نزل الامر العظيم في الحرب لم يكن لأحد مثل رأيه وكان عبيد الله ابن حبيب على تعبئة القتال ، وكان رجال من الموالي مثل هؤلاء في الرأي والمشورة والعلم بالحرب فمنهم الافضل بن بسام مولى بني ليث وعبدالله بن ابي عبدالله مولى بني سليم والبختري ابن مجاهد مولى بني شيبان » .(٤)

وهناك العديد من المقاتلة الذين تصفهم المصادر بعبارة « صاحب رأي في الحرب » ولا شك فهو يختص بوضع الاستراتيجية ويقابل مدير الحركات العسكرية .

مزايا المقاتل العربي :

وكان المقاتل العربي يتمتع بمزايا وصفات حققت له انتصارات فذة ومن هذه المزايا :(٥)

اولا ـ روح الجماعة والاصرة التي تربط المقاتلة ببعضهم وخاصة اثناء تعرضهم لخطر خارجي على الحدود الشرقية او الشمالية .

ثانيا ـ الثقة بقابلياتهم والاعتداد بشجاعتهم فقد كان عدد العرب مجتمعين اقل بكثير من عدد سكان اى اقليم من الاقاليم المفتوحة . واذا كان سكان البلاد المفتوحة قد فاقوا العرب بالعدد فان العرب فاقوهم بالكيفية وبالقدرة القتالية. لقد كان العربي فارسا يشار اليه بالبنان يرمي وهو على ظهر فرسه . لقد امتلك العربي روح البداوة بكل ما فيها من جرأة واقدام وعنف واعتماد شديد على النفس .

ثالثا ـ كان المقاتل العربي يتمتع بروح قتالية عالية وفذة ، بينما كانت هذه الروح قد خبت منذ زمن بين سكان البلاد المفتوحة الذين استخدموا المرتزقة والعبيد للقتال بدلهم وكانت الدنيا ومتاعها والتعلق بالحياة ولذاتها شغلهم الشاغل.

رابعا ـ اعتقاد العربي بان الله معه في قضيته العادلة وانه سينصره على عدوه وهذا اعطاه ثقة متزايدة بالنصر .

خامسا ـ كانت القوة العربية تتكون من قبائل خفيفة الحركة ، اكثر خفة من الاعداء . وقد حافظت الدولة الاموية على هذه الصفة طالما بقيت سياستها هجومية توسعية ونجحت في توسيع حدود الدولة وفي مجابهة الاعداء وخاصة الترك على الحدود الشرقية في بلاد ما وراء النهر .

الموالي والقتال :

لقد غالى بعض المستشرقين ومن اتبع رأيهم من المؤرخين(٦) في تصوير التمايز الاجتماعي بين العرب وغير العرب من سكان البلاد المفتوحة ووقعوا في تفاسير عنصرية ليست من مفاهيم العصر الذي ظهر فيه الاسلام . واذا كان هناك بعض الحالات الاستثنائية التي تدل على التنافر فان هناك امثلة عديدة على الامتزاج والتعاون والاشراك في السلطة. وليس يهمنا في هذا المجال أن نفصل في الامثلة ولكننا نقول بقدر ما يتعلق الأمر بالجند بأن السلطة العربية اشركت مقاتلة من المرتزقة من الموالي فهناك الارمن في ارمينيا والفراغنة والبخارية والسمرقندية والاشروسنية في الساحة الشرقية ، ففي رواية عن الطبري ان هناك ما لا يقل عن ٢٠ ألفا من سكان الاقاليم الشرقية استخدمهم نصر بن سيار في حملاته في الجبهة الشرقية(٧) . وقد وصل بعض هؤلاء الى مراتب عالية في القيادة .

كما كان الامويون يستخدمون الرقيق في القتال ، هذا مع تأكيدنا بان القوة الضاربة والرئيسية كانت تتكون من المقاتلة العرب .

وحدات شبه نظامية :

رغم اعتماد الامويين على المقاتلة العرب من القبائل المختلفة باعتبارهم جند الدولة فقد برزت بوادر وحدات نظامية دائمية . فاذا استثنينا الشرطة ، التي تعتبر خارج نطاق هذا البحث ، ابتدع معاوية بن ابي سفيان نظام الحرس وهي كتيبة خاصة بحماية الخليفة وحذا حذوه امراء الاقاليم. وكان قائد هذه الوحدة يسمى (صاحب الحرس) واطلق معاوية على كتيبته اسم الغمامة .

ولم يكن صاحب الحرس شخصا عسكريا بالدرجة الاولى بل قد تناط به واجبات اخرى مثل الحجابة اوديوان الرسائل او الخاتم .(٨)

وكانت هناك وحدات شبه نظامية اخرى مثل حاميات الثغور وكذلك الروابط على الحدود التي تعتبر وحدات متحركة وخفيفة من الخيالة . كما نظم الامويون المسالح في الداخل وخاصة في المدن غير المستقرة او المهمة من الناحية الاستراتيجية مثل مسلحة واسط في العراق ومسلحة الحيرة التي تسيطر على الكوفة . وكانت هذه المسالح تحت قيادة (صاحب المسلحة) .(٩)

المقاتلة العرب :

وفيما عدا الحرس ووحدات الثغور والروابط والمسالح التي لم تكن باعداد كبيرة وتقوم بواجبات محددة ، فان القوة العسكرية الرئيسية في الدولة الاموية كانت مناطة بالمقاتلة العرب من القبائل الشامية والعراقية والمقاتلة العرب من اهل خراسان .

وقد اشرنا فيما مضى بان هؤلاء المقاتلة العرب كانوا يعيشون في وقت السلم حياة عادية يزرعون اراضيهم او يتاجرون ببضائعهم او يمتهنون حرفة معينة وقد زاد ولعهم بالتجارة والمهن بعد ان اختلطوا بسكان البلاد المفتوحة . ولكن ما ان يستدعي الامر بسبب ازمة داخلية او خطر خارجي كان الجميع ينفرون للحرب وعليهم يعتمد الخليفة الاموي في درء الخطر .

ان هذا الوضع الذي كان عليه الجند في العصر الاموي يحتوي دون شك على نقاط ضعف رئيسية نذكر منها :(١٠)

١ ـ فقدان عنصر الضبط والربط والنظام بين صفوف المقاتلة تلك الصفات العسكرية التي تعلم المقاتل الطاعة لرؤسائه . ان فقدان هذا العنصر كان يعني عدم تواجد تلك الروابط التي تعلم الطاعة والولاء والمسؤولية تجاه الخليفة الاموي باعتباره رأس الدولة .

٢ ـ كان المقاتلة مشدودين بروابط القبيلة ولذلك لم يكن لديهم حافز محرك واحد للقتال بل كان المحرك يختلف من فئة مقاتلة الى اخرى فمنهم من يقاتل مندفعا بعوامل دينية ومنهم من يقاتل من اجل الغنائم أو لاسباب سياسية أو قبلية كما وان قتالهم ضد الاعداء الخارجيين كان للدفاع عن انفسهم وحمايتها . وفي كل الحالات كانوا يتوقعون من الدولة ان تدفع لهم عطاءا جيدا مقابل القتال .

٣ ـ في كل المعارك التي خاضها المقاتلة العرب في العصر الاموي لم يقاتلوا كجند للدولة بل كأفراد فيقبائل . ومعنى ذلك ان وحدة الهدف او الغاية كانت تنقصهم . بل تحكمت احيانا المصالح الخاصة بالقبائل او بزعامة القبائل في الاشتراك بالقتال او عدمه .

٤ ـ لم يكن هناك من رادع يمنع المقاتلة من الاشتراك في الصراع السياسي الداخلي ومعنى ذلك الاشتراك في ثورات او تمردات سياسية ضد الدولة او التناحر بين القبائل نفسها . وهذا دون شك له اثاره السلبية على الحياة العسكرية والاستعداد الحربي الذي كانت الدولة تريده من المقاتلة . وفي مثل هذه الظروف فقد لايواجه الخليفة صعوبة في قيادة المقاتلة ضد عدو خارجي ولكن في حالة حدوث تمرد داخلي فان المقاتلة من القبائل المختلفة ينشقون على انفسهم بين مؤيد للدولة ومعارض لها . والمقاتلة في كلا المعسكرين لهم نفس التدريب والاستعداد والسلاح والتكتيك . وكان حسن تصرف الخليفة واستغلاله لمثل هذه الحالة يعتمد على قابليته وذكائه فقد ارسل عبدالملك بن مروان الى الحجاج الثقفي رسالة يقول فيها :(١١)

« ... فانما امير المؤمنين امين الله وسيان عنده منع واعطاء بباطل ... وسياتيك من امير المؤمنين امران : لين وشدة فلا يؤنسك الا الطاعة ، ولا يوحشنك الا المعصية .. »

ان الامر الاخير الوارد في الرسالة آنفة الذكر يعتبر اكثر اهمية والحاحا . فقد استطاع الخليفة الاموي ان يربط مصلحة القبائل العربية في بلاد الشام بمصلحة الدولة ولذلك فقد كانت الثقة متبادلة بين الطرفين ، ولكن في الاقاليم الاخرى البعيدة عن مركز الدولة فان نجاح السلطة المركزية كان يعتمد الى حد كبير على خلق وضع يكون مفيدا لاكبر عدد ممكن من المقاتلة من اجل ضمان مساعدتهم لسياسة الدولة الاموية . وكان على الوالي الاموي ان يجامل ويداهن شيوخ القبائل والمتنفذين فيها والذين يتحكمون بولاء القبائل وبيدهم زمام قيادتها وتوجيهها . ففي رواية للطبري ان ابن هبيرة سال يوما من سيد قيس ؟ قالوا الامير ، قال :

« دعوا هذا ، سيد قيس الكوثر بن زفر لو بوق بليل لوافاه عشرون الفا لا يقولون لم دعوتنا ولا يسألونه .. »(١٢)

ولا شك فان هذه الرواية توضح نفوذ رؤساء القبائل . وقد كان في الاقاليم اكثر من واحد من امثال الكوثر بن زفر !!

محاولات للاصلاح :

وازاء هذا الوضع حاول بعض الخلفاء أو الولاة محاولات جادة لتغيير الوضع واصلاحه وذلك عن طريق مزج القبائل وربطها برابطة جديدة اكثر قوة من رابطة القبيلة . ففي سنة ١٠٧هـ/٧٢٥م حاول اسد القسري نقل الجند من البروقات الى بلخ . وقد كان الجند في الاولى منقسمين الى اخماس ، اما في بلخ فقد خلطهم واسكنهم دون اخذ التقسيم القبلي بنظر الاعتبار .(١٣) كما حاول الخليفة هشام بن عبدالملك ان يخفف من اثر النفوذ القبلي بان اختار نصر بن سيار وهو حيادي ليس له نفوذ قبلي في خراسان واليا على اقليم خراسان . واتخذ نفس الخليفة موقفا عمليا حين امر واليه الجنيد بن عبدالرحمن بان يسقط من الديوان (العطاء) اسماء المقاتلة الذين يرفضون الجهاد وامره بألا يضغط عليهم لانه سيرسل له مقاتلة جدد ممن يرغبون في القتال . ان هذا الموقف منالسلطة المركزية يدل على ادراك الخليفة بان هناك بعض المقاتلة لايرغبون بالاستمرار في القتال ولا يمكن للسلطة الاموية ان تجبرهم على ذلك .(١٤)

الا ان ارسال عناصر عربية جديدة من البصرة والكوفة او ارسال الجند السوري أدى الى حدوث شقاق وتصادم بين القادمين الجدد وبين العرب القدماء من اهل خراسان . وبرزت كتلتان : المقاتلة من اصحاب الامتيازات والنفوذ السياسي والمستقرين المحرومين ولم يكن في مقدور السلطة الا ان تعتمد على المقاتلة من اصحاب السلطة والنفوذ.

لقد ادت هذه الحالة الى استمرار الحركات المعارضة للدولة وأبانت اكثر من اي وقت مضى مدى حاجة الدولة الاموية الى جيش نظامي دائم قوي . ذلك لان الثوار رغم قلة عدد المنخرطين تحت لوائهم استطاعوا تحدي الدولة وتمكنوا من مطاولتها مدة ليست بالقصيرة لا بسبب ضعف الدولة بل بسبب عدم اعتمادها على جيش دائم ومنظم . ولعل في حركة يزيد بن المهلب(١٥) في خلافة يزيد الثاني ما يوضح ذلك احسن توضيح . تشير مصادرنا التاريخية بان يزيد بن المهلب حين بدأ حركته لم يكن معه اكثر من سبعين شخصا ، وقد أمر والي البصرة عدى بن ارطاة المقاتلة من الاخماس بالخروج للتصدي ليزيد بن المهلب ولكن ازد البصرة انشقوا عن الوالي الاموي والتحقوا بيزيد بن المهلب لان المهالبة من اليمانية والازد من اليمن كذلك . على ان عدى بن ارطأة ربما توقع ذلك ، الا انه لم يتوقع الموقف الذي وقفته تميم وعبد القيس وهما من مضر . ذلك ان كليهما انتهزتا الفرصة وقررتا الطلب من الوالي زيادة العطاء الذي كان ٦٠ درهما شهريا . ولما امتنع الوالي من اجابة هذه المطاليب بحجة ان زيادة العطاء من اختصاص الخليفة امتنعت القبيلتان عن مساعدة الوالي في محنته هذه .

ولم يبق أمام الوالي الاموي الا الاعتماد على الشرطة وبعض الموالي للدفاع عن البصرة ولكن مقاومته لم تستمر واجبر على الاستسلام . وقد استولى يزيد بن المهلب على بيت المال في البصرة حيث كان فيه ٩ ملايين درهم استطاع بها ان يجمع عددا كبيرا من الاتباع ولم تخمد حركته الا بعد ان ارسلت السلطة المركزية في دمشق ٨٠ الفا من المقاتلة من بلاد الشام .

ان حركة يزيد بن المهلب لم تكن حالة استثنائية او

معزولة بل ان حالات مشابهة لها حدثت المرة تلو الاخرى وفي كل مرة يقف الوالي مكتوف اليدين ويظهر عجزه عن التصدي لها حتى تسعفه السلطة المركزية بارسال القبائل السورية الموالية لها .

الخاتمـة :

ان عدم قدرة الخليفة على خلق جيش نظامي دائم مرتبط بالدولة وموال لها ومدافع عن قضيتها ، كان من اهم نقاط الضعف في الخلافة الاموية بحيث جعل السلطة المركزية عرضة لاهواء وميول شيوخ القبائل والمتنفذين في اقاليم الدولة الواسعة .

ان الازمة التي حدثت في خراسان في اواخر العصر الاموي(١٦) كشفت عن نقاط الضعف هذه بوضوح ولم يكن هناك من شيء يمكن عمله لانقاذ الموقف ، فكان الخليفة مروان ابن محمد ، رغم قابليته الفذة ، الضحية . وبسقوطه سقطت دولة الامويين .

الجيش العباسي في عصره الاول ١٣٢هـ ــ ٢١٨ :

تمهيـد :

في صدر الاسلام كانت الامة كلها مقاتلة مستعدة للجهاد تنفر للحرب اذا دعت الضرورة ذلك ، ولم يتغير الحال كثيرا في العصر الاموي حيث كان العرب المستقرون في الامصار يزاولون اعمالهم وحرفهم في اوقات السلم وينفرون للحرب حين تعلن الدولة النفير العام لقمع حركة داخلية او مواجهة عدو خارجي .

والذي يبحث في اسباب سقوط دولة الامويين سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م يجد ان السبب الرئيسي هو فشل الخلفاء الامويين في انشاء جيش نظامي ثابت واستمرار اعتماد الدولة الاموية على مبدا الامة المقاتلة . فلما ضعف المقاتلة وضعف تماسكهم من جراء العصبية القبلية او المطامح الشخصية او غيرها وفقدت رابطة الهدف المشترك الذي يربطهم بالدولة انهارت الدولة الاموية .

لقد استغلت الدعوة السرية العباسية في خراسان اسباب تذمر المقاتلة العرب من اهل خراسان الذين تذمروا من سياسة التجبير الاموية التي تقضي ابقاء المقاتلة على الحدود شتاء وعدم السماح لهم بالرجوع الى الامصار . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فكان للعرب من اهل خراسان مقاتلة او مستقرين اسباب اخرى للتذمر من السياسة الاموية التي كانت تقطع اعطياتهم احيانا او تسلبهم فيئهم وغنيمتهم او تقتطع نسبة اكبر مما تستحقه من هذه الغنائم بينما كان الواجب ان تاخذ الدولة الخمس وتترك الباقي يوزع على المقاتلة .

وقد زاد من اسباب استياء العرب من اهل خراسان في اواخر العصر الاموي هو ارسال ريع خراسان من الضرائب الى بيت المال المركزي في الشام بينما طالب اهل خراسان بضرورة صرفه على اقليم خراسان نفسه . واكثر من ذلك كان الوالي الاموي يسلط احيانا الدهاقين الفرس على المستقرين العرب لجباية الضرائب منهم وتقدير نسبتها . وهكذا استطاعت الحركة العباسية (الهاشمية) ان تجذب اليها الكثير من هؤلاء العرب المتذمرين في خراسان وغيرها .

اول جيش نظامي :

وحين انتصرت الثورة العباسية كان هؤلاء المقاتلة العرب من اهل خراسان جند العقيدة العباسية اول جند للدولة الجديدة . وقد استفاد العباسيون من اخطاء الامويين ولذلك سجلوا هؤلاء المقاتلة في (ديوان شيعة بني العباس) حسب قراهم ومدنهم واقاليمهم التي عاشوا فيها بخراسان لاحسب قبائلهم وانسابهم .

ان هذا الاجراء اتبعه العباسيون يعتبر منعطفا جديدا مهما في تاريخ الجيش العربي الاسلامي في العصر الوسيط ، ذلك ان الدولة العباسية ارادت ان تزيل كافة العوامل التي نخرت في كيان الجند الاموي حتى غدا قوة منهكة لا يمكن الاعتماد عليها . لقد شعرت الدولة العباسية باهمية وجود الترابط القوى بين المقاتلة الذين يدعمون نظام الحكم الجديد ويكونون كتلة واحدة صلدة وراء الدولة الجديدة . ومن هذا المنطاق فاننا نعتبر الجيش العباسي اول جيش منظم في تاريخ الدولة العربية الاسلامية . فالجند الهاشمية كانوا نواة اول جند نظامي بالمعنى المتعارف عليه في التنظيمات العسكرية لانهم كانوا ينتظمون كافراد لا كقبائل وكان ولاؤهم للدولة التي تعني بتدريبهم وتموينهم المستمر وتجهزهم شهريا بعطائهم .

ورغم ابقاء الدولة العباسية على اهل خراسان ، وغالبيتهم من العرب ، في وحدة عسكرية واحدة ترتبط بالولاء للدولة التى كانت تسمى بدولة اهل خراسان . فانها نظمت تشكيلات عسكرية اخرى تستند على القبائل فكان هناك فرق قبلية يمانية ومضرية وربيعية . وهذا يشير بوضوح الى ان الجيش العباسي في عصره الاول كان جيشا عربيا ـ لا كما يقال فارسيا ـ كما وان قيادة الجيش ظلت في ايدي عربية .

وحين بنى الخليفة المؤسس ابو جعفر المنصور (١٣٦هـ ٧٥٤ ـ ١٥٨هـ/٧٧٥) مدينته المدورة بغداد كان هدفه الرئيس ايجاد مركز ادارى وعسكرى جديد ولذلك كانت مدينة السلام في بدايتها وكانها قلعة عسكرية دائرية يسهل الدفاع عنها . ولم يسمح بالسكنى فيها وما حولها الا للشيعة العباسية من من جند خراسان من المقاتلة . ثم بنى الرصافة على الجانب الشرقي لدجلة ووضع فيها حامية عسكرية تحت قيادة ولي عهده المهدى يساعده في ذلك بعض القادة العرب . وكان لهذا التدبير براعة سياسية وعسكرية ، وذلك لغرض ضرب احد المعسكرين في حالة تمرد المعسكر الاخر .

عناصر الجيش العباسي :

حين يتكلم الجاحظ(١٧) عن تنظيمات الجيش العباسى يقسمه الى العناصر التالية :

(١) العرب (٢) الخراسانية (٣) الموالي (٤) الاتراك (٥) الابناء. ورغم ان الجاحظ عاش في اواخر العصر العباسى الاول (القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادي) فان تقسيمه هذا يصدق الى حد كبير على جيش المنصور وخلفائه .

ويتفق المؤرخون الاخرون(١٨) مع الجاحظ في تقسيمه هذا ويضيفون وحدات عسكرية جديدة مثل : الغلمان ، الشاكرية ، المغاربة ، الصعاليك . والملاحظ ان هذه الوحدات الجديدة لم تكن وحدات رئيسية .

وفي اواخر العصر العباسي الاول اعيد تشكيل الجيش

العباسي فقد جعل الترك وحدة عسكرية منفصلة عن الموالي . وادمجت السلطة العباسية وحدات من الازد والارمن والزواقيل والصعاليك والابناء ضمن فرقة الموالي وجعلها تحت قيادة واحدة(١٩) .

وليس يهمنا ان نتتبع تطور الجيش العباسي عبر العصور وانما سنركز في هذا البحث على الجيش العباسي في عصره الاول . وفي اعتقادنا بان الجيش العباسي في عصر الخلفاء الاوائل كان يتكون من الوحدات التالية :

(١) العرب :

لقد بانت اهمية العرب للعباسيين منذ ايام الثورة وزادت اهميتهم اثناء الحروب التي خاضها الجيش العباسي ضد الجند الشامي في العراق . فخلال تقدمه في العراق ساعدت عناصر قبلية مختلفة الجيش الخراساني . ثم ان سقوط الكوفة وواسط والموصل والبصرة ودمشق كان نتيجة مساعدة شيوخ القبائل الذين انضموا الى العباسيين .

وتورد الروايات التاريخية(٢٠) المتفرقة الكثير من الامثلة الاستدلالية فقد عملت افخاذ من طي كدليل للقوة الخراسانية المتقدمة نحو الكوفة حيث دلتها على احسن الطرق واسلمها. والمعروف ان الكوفة سقطت على يد محمد بن خالد القسري زعيم اليمانية الذي احتلها باسم الجيش العباسي قبل ان يدخل هذا الجيش المدينة . كما وان محاولة القائد الاموي استعادة الكوفة فشلت بسبب انسحاب اليمانية من صفوف جنده وخاصة بجيلة وبجدل . كما وسقطت مدينة الموصل بيد الخراسانيين نتيجة تعاون زعماء القبائل في المدينة مع الخراسانيين حيث اغلقوا الابواب في وجه مروان وجنده . وقد اجبر يزيد بن هبيرة والي العراق الاموي على طلب الامان بعد ان ضعفت مقاومته بسبب تخاذل العناصر اليمانية في جيشه حيث اغراهم ابو جعفر (المنصور) قائلا : « السلطان سلطانكم والدولة دولتكم »(٢١) . ويعود فشل العباسيين في احتلال البصرة في البداية الى كون والي البصرة الاموي مسلم بن قتيبة الباهلي كان يتمتع بنفوذ كبير في المدينة لكثرة اتباعه وانصاره من القبائل . اما دمشق فلم يفلح عبدالله بن علي العباسي بدخولها الا بعد وقوع الفتنة بين اليمانية انصار العباسيين وبين المضرية انصار الامويين حيث استغاث عبدالله العباسي باليمانية قائلا : « انكم واخوتكم من ربيعة كنتم بخراسان شيعتنا وانصارنا وانتم دفعتم الينا مدينة دمشق وقتلتم الوليد بن معاوية وانتم منا وبكم قوام امرنا فانصرفوا وخلوا بيننا وبين مضر(٢٢) » .

ان الحوادث الفاصلة التي وقعت في بداية نشوء الدولة العباسية تشهد على الاهمية الكبرى والدور الفاصل الذي لعبته القبائل العربية . فالطبري يشير الى ان هذه القبائل كانت تشكل اغلبية الجيش العباسي الذي كان يتكون من مضر واليمن والخراسانية وربيعة . ولذلك كان اكثرية قادة الجيش في تلك الفترة من العرب الذين لم يقودوا الحملات فقط ضد الثوار ولكنهم لعبوا ايضا دورا مهما في الصراع السياسي وبصورة خاصة فيما يتعلق بمشكلة ولاية العهد .

ولقد ادرك العباسيون مدى التاثير البالغ الذي يمارسه شيوخ القبائل على قبائلهم ولذلك عاملوهم معاملة طيبة ومحترمة . وكان الاحترام والود يتناسب مع عدد اتباع الشيخ . فقد رفض ابو العباس معاقبة اسحق بن مسلم العقيلي بحجة ان ذلك سيسيء الى قيس . « أترى قيسا ترضى بان نضرب سيدها حدا ، لو دعوته بالبينة لجاء مئة من قيس يشهدون ان القول قوله » . وقد منح نفس الخليفة الامان الى مسلم بن عقبة الباهلي رغم انه تحدى العباسيين في البصرة ولم يطلب العفو . وقد كان مسلم الباهلي طرفا في نزاع حدث في البصرة الا ان الوالي سليمان بن علي العباسي سامحه نظرا لنفوذه القبلي قائلا : « ما كان مسلم ليقول شيئا الا شهد له الف نزاري » .(٢٣)

ومن المهم ان نلاحظ ان المنصور ترك في الهاشمية خازم ابن خزيمة التميمي نائبا عنه ومسؤولا عن الجيش والميرة حينما حج سنة ١٤٤/٧٦١ – ٧٦٢م .

على ان رواية ابن عساكر تظهر مقدار القوة التي لم تزل كامنة في ايدي شيوخ القبائل حتى زمن المأمون العباسي . وفي الرواية يتهم عبدالله بن طاهر احد شيوخ القبائل محمد ابن صالح بن بيهس لتفاخره بمساعدة المأمون وكان قد اصبح مساويا لطاهر بن الحسين ولكن محمد بن صالح أجاب قائلا : « لقد حارب طاهر من اجل سلطان امير المؤمنين بمال امير المؤمنين ورجاله ، اما انا فحاربت بمالي ورجالي !! »

وعلى الرغم من ان الدولة حاولت منذ عهد الامويين ان تنمي بين القبائل العربية شعور الولاء والاخلاص للدولة لا للقبيلة ، فان هذه المحاولات زادت في الصدر الاول من عهد العباسيين . فالمنصور مثلا اكد على الولاء للنظام العباسي اكثر من تاكيده على الولاء القبلي ، ومع ذلك فان الضرورة السياسية جعلته يضرب التكتلات القبلية الكبيرة بعضها بالبعض الاخر مستهدفا في ذلك تحقيق اهداف سياسية ليس الا . ولقد شهد عهده الكثير من هذه المناورات . وقد نجح المنصور بكسر الحلف القديم بين ربيعة واليمن وذلك بتحريض والي اليمن معن بن زائدة الشيباني بالتشديد على اهل اليمن المتمردين ثم شجع نفس الخليفة والي اليمامة والبحرين عقبة ابن مسلم الهناتي للثار من ربيعة (قبيلة معن الشيباني) التي كانت جزءا كبيرا من سكان اليمامة والبحرين .

(٢) اهل خراسان :

ليس لدينا في هذا المقام مجالا لمناقشة طبيعة القوة الضاربة الخراسانية التي حققت النصر العباسي والتي كانت تتكون بصورة رئيسية من العرب من (اهل خراسان) . على اننا يجب ان نشير الى ان هؤلاء العرب الخراسانية الذين عاشوا في خراسان لفترة طويلة تكلموا الفارسية اضافة الى العربية وتزوجوا نساء فارسيات ولبسوا الملابس الفارسية وتكيفوا للبيئة الفارسية بتقاليدها العريقة واحتفلوا بالاعياد الفارسية .

ان (اهل خراسان) ، بعد زحفهم الى العراق خلال الثورة ، مروا بعملية (تعريب) جديدة خاصة وان الخلفاء العباسيين الاوائل كانوا انفسهم يشجعون الثقافة العربية والروح العربية في البلاط والمجتمع .

كانت الفرقة (الخراسانية) واحدة من اربع فرق في جيش المنصور . اما الثلاثة الباقية فهي : ربيعة ومضر واليمن .وهذه دلالة واضحة علىنسبة العرب الكبيرة فيالجيش العباسي في الصدر الاول من الدولة . وحين يتكلم الجاحظ(٢٤) عن فترة ابعد قليلا عن عهد المنصور يصنف الجيش العباسي كالاتي :

(١) الخراسانية
(٢) الترك
(٣) المـوالي
(٤) العـرب
(٥) الابنـاء

ويظهر من ذلك انه حتى في فترة الجاحظ كان العرب والخراسانيـة والابنـاء الذين « استعربـوا » لا يزالـون موجودين في الجيش . والواقع ان عمليـة ادخـال الاتراك في الجيش من قبل الخليفة المعتصم لاقت معارضة قوية مـن العرب والخراسانية .

لقد حافظ العباسيون على وحدة الفرقة الخراسانية . ويلاحظ بان الخراسانية منذ الايام الاولى للدعوة سجلوا حسب قراهم ومدنهم لا حسب قبائلهم وهذا مما يؤكد حرص العباسيين على الابقاء على تماسك الفرقة الخراسانية وعدم السماح للعصبيـة القبليـة بتفكيك وحـدتهم . ويصف ابن المقفع الخراسانية فيقول : « فمن الامور التي يذكر بهـا امير المؤمنين امر هذا الجند من اهل خراسان فانهم جند لم يدرك مثلهم في الاسلام وفيهم صفـة بها يتم فضلهم انشـاء الله . اما هم فاهل بصر بالطاعة وفضل عند الناس وكف عن الفساد وذل للولاة . فهذا حال لا نعلمها توجد عند احـد غيرهم » . ويذكر ابن المقفـع الخليفة بضرورة ضبط امـر جند خراسـان ورعايتهـم ويشـير الى الانتباه الى الامور التالية :

١ ـ تنظيم امور الضبط والربط والنظام عن طريق اصدار الخليفة لمنشـور يعين فيـه واجبات القادة ومسـؤولياتهـم وواجبات الجند وحقوقهم . « ... ومن كان انمـا يصول على الناس بقوم لا يعرف منهم الموافقة في الراي والقول والسيرة فهو كراكب الاسد الذي يوجل مـن رآه والراكب اشد وجلا . فلو ان امير المؤمنين كتب امانا معـروفا محيطا بكل شـيء يحفظـه رؤسـاؤهم ويقودوا به دهماءهم » .(٢٥)

ويشير ابن المقفع بصراحة الى اصل اهل خراسـان العربي من اهل العراق وارتباطهم المتين باهل الكوفة والبصـرة فيقول : « ويذكر امير المؤمنين باهل هذين المصرين (البصرة والكوفة) فانهم بعد اهل خراسان اقرب الناس الى ان يكونوا شيعته وحقيبته مـع اختلاطهم باهل خراسان وانهم منهم عامتهم . »(٢٦)

٢ ـ على الدولـة الا تسلم القادة العسكريين اموراً ماليـة كجباية الخراج لان ذلك يفسدهم ويلهيهم عن واجبهم الاصلي . « واذا اريد صـلاح هذا الجند فيجب الا يولي احدا منهم شيئا مـن الخـراج . فان الخراج مفسدة للمقاتلة . وان جبوا الدراهم اجترأوا عليها واذا وقعوا في الخيانة صار كل امرهم مدخولا . مع ان ولاية الخراج داعية الى ذلـة وتحقير وهوان وانمـا منزلة المقاتل منزلة الكرامة واللطف .

٣ ـ الاستعانة بذوى القدرة والكفاءة والنزاهة منهـم . « ومما ينظر في امرهم ان منهم من المجهولين من هـو افضل من بعض قادتهم فلو التمسوا واصطنعوا كانوا اعمدة وقوة . وكان ذلك صلاحا لمن فوقهم من القادة ومن دونهم من العامة » .

٤ ـ وان يعتني بتثقيفهم وتعليمهم الكتاب والسنة ليتجنبوا الاهواء والمعاصي والفرقة .

٥ ـ ان يكـون الخليفـة مثـلا اعلى لهـم في تجنب الترف والاسراف والمغالاة في الملبس والعطر والنساء والظهـور بمظهر المتواضع المعتدل .

٦ ـ ضرورة تعيين وقت ثابت لارزاقهم كل ثلاثة او اربعـة اشهر . وتسجيل اسمائهم في السـجلات والقضاء على اسباب شـكواهم . وربما كان من الاحسـن ان يكون نصف رزقهم عينا والنصف الآخر نقدا .

٧ ـ على الخليفة ان يستقصي اخبارهم ويستعين بالثقات في معرفتها . « وان لا يخفي (عن الخليفة) شيئا مـن اخبارهم وحالاتهم وباطن امرهم بخراسـان والعسـكر والاطراف . وان يحتقر في ذلك النفقة ولا يستعين فيه الا بالثقات النصـاح فان ترك ذلك واشـباهه احـزم بتاركه مـن الاسـتعانة فيه بغير الثقة فتصير مغبتـه للجهالة والكذب » .

ولقد دافع الخراسانية في فترات الازمات الحادة عن النظام العباسي ضد الثوار . كما وان العباسيين اعتادوا ارسال قوات خراسانية لمدد طويلـة او قصيرة في المناطـق المضطربة او التي كانت معروفة بميولها المضادة للعباسيين مثل البصرة والموصل وكذلك الشام وافريقيا . كما واشترك الخراسانية في الجهاد ضد البيزنطيين . واستغل الخلفـاء اسم اهل خراسان ووقوفهم باخلاص وراء الخلافة العباسية في سبيل تنفيذ مآربهم او مشاريعهم وخاصة فيما يتعلـق بولاية العهد . ويذكر في هذا الصدد ما قاله المنصور لعيسى ابن موسى حين حثه على التنازل لولاية العهـد الاولى الى محمد المهدي « ليعلم انصارنا من اهل خراسان انك اسرع الى ما رجـوا »(٢٧) وحينما اراد المهـدي من عيسى ان يتنازل عن ولاية العهد اخبره بان هذا الطلب نابع مـن اجماع « اهل بيته وشيعتـه وقواده وانصـاره وغيرهم من اهل خراسان(٢٨) » . وحين خطط الهادي لتنحية اخيـه هارون الرشيد ساعده بعض القواد فخلعوا هارون وبايعوا لجعفر « ودسوا الى الشيعة فتكلموا في امره وتنقصوه في مجلس الجماعة »(٢٩)

على ان الخراسانيـة لم يكونوا الفرقة الوحيـدة في الجيش العباسي فقد شكل العباسيون وحدات اخرى ـ كما ذكرنا ذلك ـ على اسس قبلية . وكذلك اشركوا القبائل في حملاتهم العسكرية . وعلى هذا فان الخلفاء طبقـوا الاسس القبلية فيما يخص الفرقة الخراسانية . فسـياسـة عدم الاعتراف بالقبيلة ضمن تشكيلات الخراسانية كانت موافقة تماما لفترة الدعوة العباسيـة ، وما ان حقق العباسـيون النصر حتى وجدوا مـن الضرورة ضـرب القبائل ببعضهـا البعض ، وعلى هذا نظم العباسيون فرقا جديدة على اسس قبليـة . ثم ان العباسـيين ، رغم ثقتهم بالخراسـانيـة واهتمامهم برعاية امتيازات هذه الفرقة ،فقد وضعوا امامهم احتمال حدوث تمرد او انحراف مـن جانبها وبهذا شـكلوا فرقا جديدة لتامين جانبهم من هذه الناحية . يقول الطبري بان تمرد الراوندية سـنة ١٤١هـ/٧٥٨م اشـعر المنصـور بضرورة تقسيم جيشه الى قسمين ووضع بعضه في بغـداد والاخر في الرصافة . وبهذا يستطيع ان يضـرب احدهمـا بالاخر في حالة حدوث تمرد من جانب ما .

لقد استعمل المنصور البارزين من اهل خراسان في مناصب عالية ، وكان يحرص على الاحتفاظ بولائهم للنظام السياسي . وفي رأينا فان تعيين المنصور لخازم بن خزيمة التميمي المروزي الخراساني نائبا عنه في الهاشمية على « العسكر والميرة »(٣٠) حينما ذهب للحج سنة ١٤٤هـ له دلالته الكبيرة من حيث ثقة الخليفة باهل خراسان . فقد استغاث المنصور بهم في اثناء ثورة الحسنيين الخطرة . « يا اهل خراسان انتم شيعتنا وانصارنا واهل دعوتنا »(٣١). واوصى ابنه المهدي بهم خيرا حيث قال :

« واوصيك باهل خراسان خيرا فانهم انصارك وشيعتك الذين بذلوا اموالهم في دولتك ودمائهم دونك ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ان تحسن اليهم وتتجاوز عن مسيئهم وتكافئهم على ما كان منهم وتخلف من مات منهم في اهله وولده » .

وحين حضرت المنصور الوفاة دعا بني هاشم والشيعة من خراسان ان يتحدوا وراء المهدي ولي العهد ويساعدوه على تسيير امور الدولة . « واسال الله ان لا يفتنكم بعدي ولا يلبسكم شيعا ولا يذيق بعضكم باس بعض يابني هاشم ويا اهل خراسان ثم اخذ في وصيتهم بالمهدي واذكارهم البيعة له وحضهم على القيام بدولته والوفاء بعهده » .

على ان قلة استعمال اصطلاح « اهل خراسان » في المصادر التاريخية بعد الانتصار العباسي قد يدعو الى استنتاج خاطيء فيما يتعلق بدورهم ككتلة سياسية في البلاط العباسي . فالاعتقاد بضعف قوتهم او تلاشيها ليس له صحة ذلك لاننا يجب ان نلاحظ بان اصطلاح (اهل خراسان) لم يكن الاصطلاح الوحيد الذي عرفت به هذه الكتلة السياسية ، فقد كان يطلق عليهم اسم (الشيعة) و (انصار الدولة) (ورؤساء الشيعة) و (القواد) . وبما انهم سجلوا منذ البداية باسماء مدنهم وقراهم ولذلك كان يطلق عليهم كذلك اسم (المروزية) و (البضبين) و (اهل بلخ) و (اهل بخارى) و (اهل فرغانة) والى آخره .

وعلى ذلك فان الكثير من ابرز رجالات اهل خراسان لم يكونوا يعرفون باسم الخراسانية بل باسم قراهم او مناطقهم التي عاشوا فيها . والامثلة على ذلك كثيرة ومتفرقة في الروايات التاريخية منها :

خازم التميمي (المروزي)
قحطبة الطائي (الجرجاني)
الفضل التميمي (الطوسي)
جديع الازدي (الجرجاني)
عبدالملك العتكي (الجرجاني)

ومن هذا المنطلق يمكن الاستنتاج بانه من غير المعقول ولا من الدقة في شيء أن ننعت المروزية اتباع خازم التميمي او الجرجانية اتباع عبدالملك العتكي على انهم فرس .

وهناك امثلة كثيرة اخرى في مصادرنا التاريخية لتاثير (اهل خراسان) في سياسة الدولة وكذلك في مشكلة ولاية العهد . فقد تعذر المنصور باهل خراسان حين كتب الى عيسى بن موسى سنة ١٤٧هـ/٧٦٤م يساله التنازل لولاية العهد الاولى لمحمد المهدي . « ليعلم انصارنا من اهل خراسان وغيرهم انك اسرع الى ما اصبو مما عليه رأيهم في صلاحهم منهم الى ذلك من انفسهم » .

وقد حصل الخراسانية ، افرادا وجماعات ، على ارباض واراض داخل المدينة المدورة وفي ضواحيها . وقد سكن نسبة كبيرة منهم في الشمال من بغداد وخاصة في الحربية حيث استقروا تبعا للمدن والمناطق التي قدموا منها في خراسان . وبمعنى آخر كان سكناهم على اساس اقليمي لا عنصري .

(٣) الموالي :

ان اصطلاح « المولى » مثل غيره من الاصطلاحات في هذه الفترة ، اصطلاحا مرنا وغير محدود . وعلى الرغم من أن « الولاء » كان علاقة اجتماعية وقانونية فان موالي الخليفة تمتعوا بمنزلة خاصة في علاقتهم بالخليفة الذي خدموه ضمن اختصاصات مختلفة .

ولقد كان بين « الموالي » نسبة كبيرة من العبيد المحررين من مختلف العناصر والاجناس . كما وان عددا من « الموالي » كانوا عربا اسروا في الحرب .

ليس من اختصاص هذا البحث ان يتعقب محتوى اصطلاح « الموالي » ولا يهمنا ماهية الاعمال المتنوعة التي كان يقوم بها الموالي في المجتمع الاسلامي . على ان ما قصدناه من اصطلاح الموالي في هذه الدراسة لا يشير الى كتلة عنصرية مكونة في الاغلب من الفرس ولكن كتلة مزيجة من اجناس عديدة يربطها بالخليفة ولاء الاخلاص الذي تضعه فوق كل اعتبار ، كما وان ارتباطها بالبلاط العباسي كان اقوى من اي ارتباط آخر .

لقد شعر المنصور منذ بداية حكمه بالحاجة الى مثل هذا السند سواء في البلاط او في الادارة او في الجيش . وقد عزم على خطة من شانها جمع هذه العناصر المختلفة ، التي جلبت بطريق الحرب او التجارة وانها جذبت انتباه الخليفة بطريقة او باخرى ، في جسم صلب واحد يستطيع ان يعتمد عليه كليا . وحالما دخل الموالي في معية الخليفة اصبحوا مرتبطين به كليا وبالتالي مطيعين له طاعة عمياء .

يقول الجاحظ : « وكان المنصور ومحمد بن علي وعلي ابن عبدالله يخصون مواليهم بالمواكلة والبسط والايناس لا يهرجون الاسود لسواده ولا الدميم لدمامته .. ويوصون بحفظهم اكابر اولادهم ويجعلون لكثير من موتاهم الصلاة على جنائزهم وذلك بحظوة من العمومة وبين الاعمام والاخوة »(٣٢).

وقد اعتنى المنصور بتدريب البعض من « احداث مواليه » على السلاح وتطورت هذه الكتلة فاصبحت وحدة كبيرة في الجيش .

ويؤكد ابن خلدون في ان البيت والشرف للموالي واهل الاصطناع انما هو بمواليهم لا بانسابهم فيقول : « فاذا اصطنع اهل العصبية قوما من غير نسبهم واسترقوا العبدان والموالي والتحموا بهم كما قلنا ، ضرب معهم اولئك الموالي والمصطفون بنسبهم في تلك العصبية ولبسوا جلدتها كانها عصبيتهم وحصل لهم من الانتظام في العصبية مساهمة في نسبها كما قال رسول الله (ص) « (مولى القوم منهم) ، وسواء كان مولى رق او مولى اصطناع او حلف »(٣٣) ولقد ظهر في الدولة العباسية نوع جديد من الولاء يسمي « بولاء الاصطناع » ،

ويعني هذا اختيار الخليفة لافراد او جماعات بغض النظر عن اصلهم العنصري حيث يمنحهم الخلع والرتب ويعهد اليهم بالاعمال المهمة . وعلى هذا فيلاحظ ظهور شخصيات متنوعة في اصلها ولكنها تحس بنفسها ككتلة منفصلة عن غيرها وتجمعها مصالحها واهدافها المشتركة ، كما وان المهم في الامر ان الخليفة نفسه كان يعود الى هذه الكتلة حيث ان بعض الخلفاء العباسيين يرجعون الى اصول عربية من جهة الام .

ومما لا شك فيه فان كتلة الموالي في الدولة العباسية اعتبرت نفسها كتلة مستقلة ومختلفة عن كل من العرب وغير العرب . ويقول الجاحظ في هذا الخصوص بان الموالي ادعوا بانهم افضل من العرب بسبب اصلهم الاعجمي وانهم افضل من العجم بسبب روابطهم الجديدة بالعرب . ان مضمون مقالة الجاحظ واضح فالموالي كانوا كتلة ممتزجة من عرب وغير العرب تجمعهم صفة واحدة الا وهي انهم اعتبروا انفسهم كتلة معينة تختلف عن العرب والعجم . وقد وصف الجاحظ منزلة الموالى بالمقارنة مع العرب والعجم ، واظهر ، وهذا امر مهم ، دعواهم بانهم افضل من العرب والعجم . ان هذه النظرة الى الموالي يؤيدها اشارة الجاحظ الى ان كتابه (العرب والموالي) يختلف عن كتابه (العرب والعجم) . وحين يدافع الجاحظ عن نفسه تجاه احد نقاده الذين اتهموه بالتكرار فيقول بان الفروق بين العرب وغير العرب هي ليست كالفروق بين العرب والموالي . من المحتمل ان الجاحظ يشير هنا الى تلك الكتلة من الموالي الذين طغت روابطهم بالخليفة على الروابط العنصرية (الجنسية) اذا كان هناك رابطة جنسية ذات بال في تلك الفترة المبكرة من عهد العباسيين ، كما وان منزلتهم (اي الموالي) في البلاط والادارة والجيش ميزتهم تماما عن كل من العرب والعجم الذين كانوا منافسيهم فيكسب رضا الخليفة والحصول على المراكز الحيوية .

على ان الجاحظ يعترف بان الموالي حصلوا على تلك المنزلة الرفيعة بسبب رعاية الخلفاء العباسيين الذين امهاتهم غير عربيات على الاغلب ، وادركوا مدى الاستجابة القوية والرابطة المشتركة التي تربطهم بكتلة الموالي من السكان . وبهذا فالجاحظ يرفض رفضا باتا فكرة العنصر كمعيار لتصنيف المجتمع ويعتبر البيئة والثقافة عوامل رئيسية في قياس الشخص وفي تربيته . ومن هذا المنطلق فان الموالي ثقافيا ولغويا وبيئيا كانوا عربا كما يمثلهم الجاحظ .

يشير الجاحظ واليعقوبي بان الخليفة المنصور كان اول خليفة عباس استعمل مواليه وغلمانه في اعماله . على ان المسعودي والمقريزي يدعيان بان المنصور لم يستخدمهم فقط بل فضلهم على العرب ايضا . ويظهر ان الرأي الاخير رأي اعتباطي لا يسنده دليل ثابت . واذا كان الخليفة قدوثق بمواليه وقدمهم فان ذلك لم يكن بالتأكيد على حساب العرب الذين استمروا يحتفظون بمراكز رئيسية وخطيرة . ويمكن القول بان ادعاء المسعودي والمقريزي ينطبق على فترة متأخرة (في حوالي منتصف القرن الثالث الهجري) من العصر العباسي ويؤيد ذلك المؤرخ الناقد ابن خلدون الذي يظهر بوضوح نفوذ العنصر العربي خلال العصر العباسي الاول دون ادنى شك . ويحدد ابن خلدون بدقة الى ان العرب فقدوا السلطة حين تسلم ابناء الرشيد العرش وانهارت العصبية العربية في عهد المعتصم . وينظر ابن خلدون في تحليله لهذه الفترة المتقدمة من التاريخ الاسلامي ، الى ان القضية كلها قضية عربية تحمل فيها العنصر العربي المسؤولية على عاتقه حتى بدأت تفلت من يديه بصورة تدريجية .

لقد بدأ (الموالي) بالنمو من حيث الاهمية في البلاط والادارة منذ عهد الخليفة المنصور . ويجهزنا اليعقوبي بقائمة من اسماء الموالي الذين اختصهم المنصور ووثق بهم ، ومن بينهم : عمارة بن حمزة ، مرزوق ابي الخصيب ، واضح ، منارة ، العلاء والربيع بن يونس .ويقول ابن قتيبة بان المنصور غضب غضبا شديدا لما سمع ان والي البصرة سلم بن قتيبة الباهلي عاقب احد موالي الخليفة واعتبر ذلك تجاوزا على الخليفة نفسه كما وان المنصور اوصى ولي عهده المهدي بالموالي قائلا انه ترك له ثلاثة اشياء مهمة هي : المال ، الموالي ومدينة السلام .

ولم يقف الامر عند هذا الحد بل ان هذه الرابطة القوية والولاء استمر فشمل الجيل التالي من الموالي . فقد قيل عن حاتم بن هرثمة بن اعين مولى الرشيد « فانه ممن لا يعرف الا باطاعة ولا يدين الا بها بما قدر من الله مما قدم له من حال ابيه المحمود عند الخلفاء » .(٣٤)

ويظهر ان تأثير الموالي قد تعدى الحدود في عهد الخليفة المهدي . فقد حذر عبدالصمد بن علي ، خال المهدي ، الخليفة ـ على ما يذكره الطبري ـ بأن علاقته الودية بالموالي سوف تبعد اهل خراسان عنه . ولكن المهدي اجاب بان الموالي يستحقون كل هذا التقدير ذلك لانهم يضطلعون باى عمل سيطلبه منهم مهما كان ذلك العمل لا يتناسب مع منزلتهم او قد يعتبر تحقيرا لهم ، بينما يعترض الآخرون من غير الموالي على مثل هذه الطلبات من قبل الخليفة متعذرين باصلهم ومنزلتهم وسابقتهم في الدعوة العباسية .

وفي رواية للخطيب البغدادي عن الربيع بن يونس ان المهدي حين تبوأ الخلافة وزع محتويات احدى خزانات بيت المال بين « مواليه وغلمانه وخدمه »(٣٥) .

ويقول الجهشياري بان المهدي اظهر احتراما كبيرا لعمارة ابن حمزة لدرجة ان القرشيين الذين كانوا يزورون البلاط في ذلك الحين استغربوا من شخصية القادم ، فاجاب المهدي « انه عمارة بن حمزة مولاي » . وتذكر المصادر التاريخية الموالي جنبا الى جنب مع العباسيين واقرباء الخليفة القربين في قوائم الهبات والهدايا التي يعطيها الخليفة . كما وان اهمية الموالي تظهر من الرواية التي تشير بان المهدي حين رحل الى جرجان سنة ١٦٩هـ/٧٨٥م ترك مولاه الربيع بن يونس لينوب عنه في بغداد .

ولقد كان عدد الموالي الذين تقلدوا مناصب سياسية وعسكرية او اظهروا براعة في المجال السياسي في عهد المهدي واولاده الذين خلفوه كبيرا ، على ان بعض المؤرخين الذين اعتبروا الموالي كتلة عنصرية (جنسية) لا كتلة اجتماعية سياسية، يدعون بان اختيار الخلفاء العباسيين لوزرائهم من (الفرس) كان خطة مدروسة ومصممة تصميما جيدا من قبل الخلفاء كدليل على ان العهد العباسي الجديد شركة بين العرب والفرس . ونستطيع ان نؤكد بان ليس هناك في مصادرنا التاريخية ما يشير الى ان المناصب في الدولة العباسية في عصرها الاول كانت توزع حسب اعتبارات او مقاييس عنصرية. وقد اظهرنا سابقا بان الموالي لم يعتبروا انفسهم فرسا كما وانهم لم ينظر اليهم كفرس من قبل الآخرين . وكان وزراء العصر العباسي الاول اما ذوي اصول غامضة غير معروفة تماما

ترعرعوا في البلاط العباسي او موالي جربوا لمدة طويلة فكانوا موضع ثقة واثبتوا كفاءة عالية . وقد عينوا في مناصبهم العالية بسبب مهارتهم الادارية وولائهم السياسي للعباسيين. ويجب ان نضيف بان الخليفة كان بوسعه دون اية صعوبة ان يقصيهم من مناصبهم اما لشكه فيهم او لاعتبارات يعتقد انها ضرورية .

وفي المدينة المدورة استوطن الموالي قطاعا خاصا بهم سمي (درب الموالي) ، كما وان موالي آخرين منحوا قطائع اما افرادا اوعلى شكل جماعات مثل عباد الفرغاني والفرغانية، حسن الشروي والشروية ، والربيع بن يونس ، سليمان وسويد والخ ... على اننا يجب ان نشير بان الشروية هم موالي محمد بن علي ابن عبدالله العباسي ثم موالي للخلفاء العباسيين من بعده . وكان للموالي ديوان خاص بهم في بغداد يسمى « ديوان الموالي والغلمان » .

(٤) الابناء :

في اواخر عهد المهدي وفي ايام الهادي وهارون الرشيد بدأ يظهر اصطلاح جديد بين كتل البلاط وفي تشكيلات الجيش العباسي الا وهو (الابناء) . ويذكرهم ابن سعد في طبقاته باسم (ابناء اهل خراسان) حيث يشير الى ابي نصر التمار على انه من ابناء اهل خراسان من نسا . وتؤكد رواية اخرى الاصل الخراساني لكتلة الابناء هذه في مناقشة بين الرشيد واحدهم الذي قال يتحدث عن نفسه بأنه « من ابناء هذه الدولة ، اصله من مرو وولادته في بغداد » . ويذكر الدينوري ان الرشيد حين زار سنة ١٨٠هـ مدينة الهاشمية التي بناها ابو العباس قرب الانبار وجد فيها عددا من « ابناء اهل خراسان » لا يزالون يقطنونها . ويشير الدينوري نفسه الى ان ثورة رافع بن ليث الليثي في خراسان كان سببها سياسة الوالي عيسى بن ماهان التعسفية تجاه اهل خراسان ، كما وان فشلها يعود الى انحياز بعض الذين كانوا مع رافع الليثي مثل عجيف بن عنبسة والاحوس بن مهاجر الى الجيش العباسي . وفي رواية للطبري يسمي هذه الكتلة « معشر الابناء واهل السبق الى الهدى » والهدى هنا معناه الانضمام الى الدعوة العباسية . كل هذه الروايات التاريخية تؤكد دون شك الاصل الخراساني للابناء . وبمعنى آخر ان الابناء هم ابناء واحفاد اهل خراسان جند العقيدة العباسية الذين ثاروا في وجه السلطان الاموي وزحفوا نحو العراق والشام فحطموا الدولة الاموية واقاموا الدولة العباسية سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م .

وفي العراق مركز السلطة العباسية الجديد استوطن اهل خراسان محافظين على وحدتهم غير متناسين اصلهم ولذلك برزت كتلة الابناء من كتلة اهل خراسان كتلة واحدة منسجمة تاثرت بالتطورات الجديدة السياسية والثقافية والحضارية الا انها لم تنس اقليم آبائها الاول حيث ولدت الدعوة العباسية وتفجرت .

وكما ان اهل خراسان كانوا عربا وعجما فالابناء دون شك سيكونون مزيجا من الجنسين ولذلك يصدق ابن طيفور حين يسميهم « ابناء خراسان المولدون » . فمن ابرز العرب من الابناء هو عبدالله بن حميد بن قحطبة الطائي حيث يشير اليه الخليفة وداود بن عيسى بن موسى الخراساني ومحمد ابن ابي خالد المروزي .

اما ابرز العجم من الابناء فهو يحيى بن خالد البرمكي الذي يشار اليه كواحد من « اهل الدولة » .

ومما يدل على الصلة القوية والترابط الوثيق بين (اهل خراسان) و (الابناء) هو اشارة الروايات التاريخية لهم جنبا الى جنب ، فيذكر الجاحظ على لسان الخراساني «اننا النقباء وابناء النقباء» ويدعي البنوى الاصل الخراساني دائما فاصله في خراسان وفرعه في بغداد . ويؤكد الجاحظ في مناسبة اخرى في مناقب الترك بان « البنوى خراساني » . يقول البنوى « انا اصلي خراسان وهي مخرج الدولة ومطلع الدعوة ... وفرعي بغداد وهي مستقر الخلافة والقرار بعد الحولة وفيها بقية رجال الدعوة وهي خراسان العراق وبيت الخلافة وموضع المادة » .(٣٦)

ويستطرد البنوى فيفخر بنفسه قائلا : « وانا اعرق في هذا الامر من ابي واكثر ترددا فيه من جدي واحق في هذا الفضل من المولى والعربي . ولنا بعد في انفسنا ما لاينكر من الصبر تحت ظلال السيوف القصار والرماح الطوال ... ولنا الصبر على الجراح وعلى جر السلاح اذا طار قلب الاعرابي وساء ظن الخراساني(٣٧) » .

وقد اثبتت التجارب السياسية وقوف الابناء الى جانب اهل خراسان في فترات الشدة والازمات . فقد وقف الابناء مع اهل خراسان ضد اهل الشام كما وقف الابناء مع الجرمية (وهم من خراسان) ضد اجراءات المعتصم بادخال الترك في الجيش العباسي .

ولكن الابناء لم يكونوا قوة كبيرة في عهد الخلفاء العباسيين الاوائل ويزداد ذكرهم في عهد الرشيد ثم لعبوا دورا مهما في النزاع بينالامين والمامون .

وسكن الابناء في بغداد الارباض وكانوا يسمون (اهل الارباض) أو (ابناء الارباض) . على ان الفرق بين الابناء وأهل خراسان هو ان اهل خراسان من ـ العرب تاثروا بالبيئة الفارسية وتقاليد حضارتها لاستقرارهم هناك ردحا من الزمن اما الابناء فتاثروا بتقاليد الخلافة العباسية في العراق الذي كانت بيئته تختلف تماما عن بيئة خراسان الاعجمية .

(٥) السودان والزنوج والعبيد :

لقد تقربت الدعوة العباسية الى المستضعفين في المجتمع الاسلامي فدعت العبيد الى الانخراط في صفوف الثوار وعتق كل عبد ينضم اليها . ولم يكن وجود العبيد في الجيش العباسي شيئا مبتدعا فقد كان العبيد يرافقون الحملات العسكرية منذ العهد الاموي .

وتذكر المصادر التاريخية وجود العبيد والزنوج كتشكيلة في الجيش العباسي فكان هناك وحدة مكونة من ٤ الاف زنجي في جيش يحيى بن محمد العباسي والي الموصل حين وصوله سنة ١٣٣هـ/٧٥١م كما ورافق السودان الجيش العباسي الذي ارسله المنصور الى البصرة لاخماد ثورة ابراهيم الحسني . والمعروف انه كان يوجد في بغداد دار خاصة بالرقيق تسمى (دار الرقيق)(٣٨) . وكان الرقيق يستوردون من مصادر مختلفة منها الشراء او السبي او هدايا او جزء من ضرائب اقليم من الاقاليم ..

(٦) الاعراب :

ولقد كان من عادة قادة الجيش العباسي من اصحاب النفوذ القبلي امثال خازم بن خزيمة التميمي ومعن بن زائدة الشيباني وعقبة بن مسلم الهنائي وعبدالله بن شهاب المسعمي ويزيد بن مزيد التميمي ان يصطحبوا جزء من قبائلهم مع الجيش المنظم عند انتدابهم للغزو او لقمع ثورة وبهذا يستطيع القائد ان يعتمد على تفانيهم له في فترات القتال الحرجة ثم انهم سينتفعون بالغنائم والاسلاب ويتيسر للسلطة اشغالهم لفترة مع الزمن . ولقد استعمل ابو جعفر (المنصور) نفس هذه السياسة مع قبائل الجزيرة حين كان واليا عليها في خلافة اخيه ابي العباس .

(٧) الشاكرية :

المعروف ان اصطلاح شاكرية يعني بالفارسية الخدم . وهؤلاء من المرتزقة المرتبطين بالوالي او القائد ويعتبرون جزءا من مواليه وغلمانه . وكانت الشاكرية في الجيش تستخدم في الخدمات بالدرجة الاولى والحراسة . وقد ربطوا في اواخر العصر العباسي الاول بالمؤسسة العسكرية فسجلوا في ديوان واحد مع الجند سمي ديوان الجند والشاكرية(٣٩) .

(٨) الصعاليك :

وتعني كلمة « صعلوك » الفقير الضعيف الحال وان انخراطهم في الجيش العباسي في اواخر العصر الاول يعني دخول عناصر من الطبقات الضعيفة والكادحة في الجيش . ولا شك فان قبول هؤلاء في الجيش يدل على سياسة حكيمة للدولة العباسية فقد انضم هؤلاء الفقراء والمحرومين الى حركات التمرد ضد السلطة وسببوا قلاقل كثيرة في اقاليم عديدة مثل اذربيجان وارمينية وغيرهم فكان حلا معقولا من قبل الدولة ان تقبلهم في الجيش فقضت بذلك على اسباب تمرهم وحلت مشكلة بطالتهم . وكان الصعاليك يتواجدون بين الجند المرابط في الثغور .

(٩) الزواقيل :

يرد هذا الاصطلاح عند الكلام عن النزاع بين الامين والمامون . وكان الزواقيل كجماعة وقفت الى جانب الامين ، وغالبية هذه الكتلة تتجمع من اقليمي الشام والجزيرة وتذكر المصادر بعض زعمائهم امثال نصر بن شبث العقيلي والعباس ابن زفر الهلالي وقد حار المؤرخون في تمييز هذه الجماعة(٤٠) ونحن نعتقد بان الزواقيل في غالبيتهم عرب من القبائل القيسية المستوطنة في بلاد الشام والجزيرة . يشير الطبر الى ان الخليفة هارون الرشيد ارسل جعفر البرمكي سنة ١٨٠هـ/٧٩٧م لوضع حد للعصبيات القبلية بين القيسية واليمانية « وقتل زواقيلهم ومتلصلصتهم » وقد اشرنا بان زعماءهم كانوا عربا .

ولهذا نرى بان الزواقيل عربا قيسية نصروا الامين وبقوا بعد انتصار المامون ضد السلطة العباسية ولذلك نعتتهم السلطة « باللصوصية » وكان لهذا النعت ما يبرره لان هؤلاء البدو كانوا محرومين من العطاء وربما عمدوا الى النهب لاقامة اودهم وبمرور الزمن اصبح اصطلاح الزواقيل اصطلاحا اجتماعيا يدل على الضعفاء من البدو العرب وخاصة من القيسية .

وكما ادخلت السلطة العباسية الصعاليك في الجيش ضمت كذلك الزواقيل لضبطهم وحل مشكلتهم المعاشية وايجاد عمل مفيد لهم .

(١٠) عناصر اخرى :

وقد انضم الى الجيش العباسي بمرور الزمن عناصر اخرى وخاصة في اواخر العصر الاول(٤١) مثل الفراغنة والزط والارمن وغيرهم على ان اغلب هذه العناصر لم تتبلور في فرق عسكرية في الفترة موضوعة البحث وربما دخلت ضمن المتطوعة والقوات النظامية .

★

الهوامش :

١ ـ البلاذرى ، فتوح البلدان ، جـ١ ص٢٠٢ ـ اليعقوبي ، تاريخ ، جـ٢ ص١٧٦ طبعة ليدن .

٢ ـ دنيت ، مروان بن محمد (اطروحة دكتوراه) جامعة هارفرد ١٩٣٩ ص١٢٣ .

٣ ـ الطبرى ، تاريخ ، الطبعة الاوربية ، القسم الثاني ، ١٣٨١ ـ ١٣٨٢ .

٤ ـ المصدر السابق ، ص ١٥٤٤ .

٥ ـ راجع دنيت ، المصدر السابق ، ص ١٣٣ فما بعد .

٦ ـ فان فلوتن ، السيادة العربية ، القاهرة ١٩٣٤ ـ ولهاوزن ، الدولة العربية القاهرة ١٩٥٨ ، جرجي زيدان التمدن الاسلامي ، جـ٢ ص ١٨ ـ ٢٨ د. عبد الامير دكسن الخلافة الاموية ١٠١ ـ ١٠٤ (بالانكليزية).

٧ ـ الطبرى ، تاريخ ، ص ١٦٩٠ .

٨ ـ المصدر السابق ، ص ١٦٤٩ ، ١٦٥٠ .

٩ ـ دنيت ، المصدر السابق ، ص ١٣٦ .

١٠ ـ المصدر السابق ، ص ١٣٩ .

١١ ـ المسعودى ، مروج الذهب ، جـ ٥ ص ٢٧٦ . وقد خطب الحجاج الثقفي في المقاتلة فقال : « .. الا وان امير المؤمنين امرني اعطائكم اعطياتكم واشخاصكم الى محاربة عدوكم (الخوارج) مع المهلب وقد امرتكم بذلك واحلت لكم ثلاثا واعطيت الله عهدا يؤاخذني بخ ويستوفيه مني ان لا اجد احدا من بعث المهلب بعدها الا ضربت عنقه وانهبت ماله . « مروج الذهب ، قاهرة جـ ٣ ص ١٣٥ .

١٢ ـ الطبري ، تاريخ ، ص ١٤٥٥ .

١٣ ـ المصدر السابق ص ١٤٩٠ .

١٤ ـ د . فاروق عمر فوزى ، العباسيون الاوائل ، الجزء الاول ، بيروت ١٩٧٠ .

١٥ ـ الطبرى ، ص ١٣٧٩ .

١٦ ـ د . فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، بيروت ١٩٧٠ .

١٧ ـ الجاحظ ، الترك (في ثلاث رسائل) ١٩٠٣ ص ٨ .

١٨ ـ الطبري ، تاريخ القسم الثالث ، ١٣٨٠ ـ ١٣٨٤ ،

١٤٠٠ ، ١٤٣١ ـ الكامل لابن الاثير جـ ٧ ص ٢٩ ، ٤٤ ، ٦٤ ـ المسعودى ، مروج الذهب ، جـ ٧ ص ٢٥٨ ، ٢٧٣ ـ ٢٧٧ .

١٩ ـ مياه ، عصر المتوكل ، اطروحة (بالانكليزية) ، جامعة لندن ١٩٦٣ .

٢٠ ـ راجع د . فاروق عمر ، العباسيون الاوائل ، جـ ٢ ، الفصل الاول ، دمشق ، ١٩٧٣ .

٢١ ـ راجع مقالنا

The Composition of Abbasid Support:

في مجلة كلية الاداب سنة ١٩٦٨ ففيه معلومات اكثر عن مصادرنا الاصلية والحديثة .

٢٢ ـ الازدى ، تاريخ الموصل ، ص ١٢٤ .

٢٣ ـ د . فاروق عمر ، العباسيون الاوائل ، جـ٢ ، ص٣٨.

٢٤ ـ الجاحظ ، الترك ، ١٩٠٣ ص ٨ .

٢٥ ـ ابن المقفع ، رسالة في الصحابة ، ص ١١٩ فما بعد .

٢٦ ـ المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

٢٧ ـ الطبرى ، تاريخ ، القسم الثالث ، ص ٣٣٨ ـ ٣٤١، اليعقوبي ، التاريخ جـ٢ ، ٤٥٦ ـ ٤٥٧ .

٢٨ ـ الطبرى ، ص ٤٧١ ـ ٤٧٦ (القسم الثالث) .

٢٩ ـ المصدر السابق ، ص ٥٧٢ ـ الجهشياري ، الوزراء والكتاب ١٧٤ ، اليعقوبي تاريخ ٤٨٩ ـ ٤٩٠ .

٣٠ ـ الطبرى ، ص ٦٠٠ ـ ٦٠١ اليعقوبي ، تاريخ ، ص ٤٩٠ .

٣١ ـ الطبرى ، ص ١٤٣ (القسم الثالث) الطبعة الاوربية.

٣٢ ـ الجاحظ ، رسائل ، (مناقب الترك) تحقيق عبدالسلام هارون ، ص ٢٣ ـ ٢٤ .

٣٣ ـ ابن خلدون ، مقدمة ، جـ ٢ ص ٤٣٣ ـ ٤٣٤ .

٣٤ ـ الطبرى ، تاريخ ، ص ٧٦٦ .

٣٥ ـ الخطيب البغدادى ، تاريخ بغداد ، جـ ٥ ص ٣٩٣ .

٣٦ ـ الجاحظ ، رسائل (مناقب الترك) ، ص ٢٩ .

٣٧ ـ المصدر السابق ، ص ٢٦ .

٣٨ ـ المقريزى ، المقفى ورقة ٩١ ب .

٣٩ ـ الكوفي ، الفتوح ورقة ٢٣٥ب ـ الطبرى القسم الثالث ص ٤٣٩ ـ تاريخ طبرستان جـ ٢ ص ١١٨ .

٤٠ ـ راجع ، فاروق عمر ، الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية الطبعة الثانية بيروت ١٩٧٨ (المقدمة) .

٤١ ـ Miah, The Reign of Al - Mutawakkil, PH . D., London 1963.